علم الانسان

(٢) البيئة

البيئة هي ما سماهُ بعض الكتاب العصريين الوسط او المحيط . ويراد بها في بحثنا هذا البقعة التي ينزلها الانسان من هذه الارض بما يحيط بها من الناس واحوال الاقليم من حرّ وبرد وجفاف ورطوبة وما حاكى هذه الظواهر الطبيعية

عند ولادة الطفل يكون قد مضى عليهِ تسعة اشهر معرّضاً لعوامل البيئة التي هو فيها اي بطن امهِ . ثم ان جنسهُ تعيّن منذ حُبل بهِ وقابليتهُ للانطباع او الانفعال بالعوامل الخارجية تسهل عليهِ الانفعال بالبيئة التي كان فيها قبل ولادتهِ ولكن ذلك لا يغيّر جنسهُ . ولذلك كثيراً ما نخطئ في ظننا ان وجود الامهات في بيئات غير صالحة اي بيئات لم تستوف فيها شروط حسن الغذاء والعناية بغاء بها الاولاد ضعافاً والنسل منحطّاً هو سبب انحطاط الجنس . وبقدر ما يصح هذا الظن يُسَرُّ المصلحون الاجتماعيون لان اصلاح النسل بطريقة الانتخاب الصناعي المسماة « يوجنكس » تصير سهلة التناول ضمن حدود محدودة ولو كانت بعيدة التحقيق اجمالاً بسبب جهلنا لشروطها وقواعدها . فان اصلاح البيئة الطبيعية امر لا اسهل منهُ اذا استطعنا اقناع الجمهور بالحاجة اليهِ لنفع جميع الطبقات على السواء فاذا افتخر الرجل المتمدن بانهُ ارقى من سائر طبقات الخلق فانما يكون ذلك بتمكنهِ من الاحتكام في بيئتهِ الطبيعية على الاكثر . ومهما يكن من امر الماضي فلا مشاحة الآن ان البيئة الطبيعية من صنع الانسان كما ان الانسان من صنعها

ولا ينكر لان لاحوالنا المادية باوسع معانيها يداً في تكييف معايشنا . فمن ساعة الحبل بالطفل يذعن لما اصطلحنا على تسميتهِ « بالقيد الجغرافي » . خذ مثلاً لك طفلاً انكليزيًّا ولد في الهند فان هناك عوامل شتّى تعمل معاً لتقرر هل يبقى حيًّا او يموت . وهذه العوامل يمكن ردها الى ثلاثة للاختصار . الاول تربيتهُ الخاصة بقومهِ . والثاني جنسهُ . وقد عرفنا هذا الجنس بخواص اشهرها زرقة العينين وشهب الشعر وخواص اخرى في تركيب البنية . والثالث عامل الاقليم وجميع ما يتعلق بهِ . اما من جهة العامل الاول فان تربية الطفل الانكليزي تكون على الغالب اعلى من تربية الهندي لانها تكون اكثر انطباقاً على قواعد الصحة . ولكن العاملين الآخرين وهما عاملا الجنس والاقليم عظيما التضادّ والتناقض الى حدّ يقضي بموت الطفل لا محالة اذا لم يرحل عن الهندي بعض ادوار عمرهِ . وربما استطاع الانكليز الهند تطبيق معيشتهم

على اقليم البلاد وتعوّد سكناها بعد ان يدفعوا بذلك ثمناً غالياً من نفوس أطفالهم ولكنهم لا يريدون ان يدفعوه كما يستدلّ من رغبتهم عن المقام في تلك البلاد باولادهم الى آخر العمر

فما هي اذاً حدود القيد الجغرافي ؟ واين تبتدئ دائرة نفوذها واين تنتهي ؟ واذا قلنا ان هذا القيد قائم بثلاثة امور وهي المركز والجنس والتربية فهل يغلب احدها الآخرين على طول الزمن ؟ وان كان ذلك فاي هو الغالب ؟ خذ الانكليز الذين نزلوا الهند والذين نزلوا استراليا مثلاً . فما الفرق بين الاحتلالين على مرور الايام ؟ هل يكون احتلال الانكليز للهند حادثاً بسيطاً وقتياً واحتلالهم لاستراليا استعماراً دائماً ؟ اوخذ سكان ولايات اميركا الجنوبية من بيض وسود وحمر . فهم لا تجمعهم الآن جامعة الأ جامعة الاقليم المشترك اما في الجنس والتربية فهم مختلفون كل الاختلاف . فما يكون تأثير ذلك فيهم على مرور الزمن

ان البحث في هذا الموضوع من خصائص علم حديث سمّوه علم الجغرافية الانثروبولوجية اي علم الانسان من حيث علاقته بالبيئة التي هو فيها او البقعة التي ينزلها من رحاب هذه الارض ومن اعلام هذا العلم رتسل الالماني وقد عرّف الانسان بقوله انهُ قطعة من الارض . وزاد انصارهُ على ذلك انهم بعد ان قسموا الارض الى هواء وماء وقشرة سطحية وكتلة داخلية قالوا ان الانسان هو الجزء الاكثر حركة ونشاطاً من غلافها الحي

وقال ديمولن الفرنسوي « ان على وجه البسيطة امماً مختلفة لاحدّ لها فما هو سبب هذا الاختلاف . يقال بوجه عام ان السبب هو الجنس . ولكن قولنا هذا لا يفسّر شيئاً ولا يعدّ تعليلاً شافياً لان الجنس ليس علّة بل معلول . اما السبب الاول في اختلاف الاجناس فهو الطريق الذي جازتهُ تلك الامم . فان الطريق هو الذي يولد الجنس وهذا يولّد الصنف الاجتماعي » . وكلامهُ هذا وارد في مقدمة كتابهِ المسمّى "Comment la ronte crée le type social" اي كيف يولّد الطريق الصنف الاجتماعي ويقول في مكان آخر من المقدمة « ولو اعيدت هذه الارض سيرتها الأولى من اول وجود الانسان عليها لعاد تاريخ اقوامها كما كان اجمالاً ولجرى في مجاريهِ الكبرى الحالية . وقد يكون هناك مجارٍ صغيرة واختلافات ثانوية في بعض مظاهر المعيشة العمومية والفورات السياسية التي تنزلها فوق منزلتها ولكن المجاري او الدروب التي ولّدت اصنافاً او شعوباً معينة تولّد تلك الاصناف او الشعوب عينها اذا تركت وشأنها وتطبعهم بطابع الصفات الجوهرية الاولى عينها »

ومهما قيل في ذلك فلا مناص من ان نحسب حساب الجنس والاّ فلِمَ لا تنافس سائر الحيوانات الانسان وتزاحمهُ على سيادة هذه الارض وتبني لانفسها مدنيات تضارع مدنيتهُ

او تفوقها. وبعبارة اخرى لم يرعى الناس الماشية ولا ترعى الماشية الناس. والجواب انا خلائق عاقلة لا نألف نفسنا على ان نكون كذلك

ثم انهُ لا مندوحة لنا ايضاً من ان نحسب حساب التربية وما تبنى عليهِ من الادراك والاختيار. فانهُ لا اسهل في تعليل صيرورة الفرس حيواناً اليفاً وصيرورة قبائل اسيا الوسطى رحّلاً من القول انهُ وجد في اسيا سهول واسعة ووجدت الخيل البرية فيها فلم يجد اهل تلك السهول بدّاً من تصييرها اليفة ومن ان يصيروا هم قبائل رحّلاً. صحيح ولكن لِمَ لم يحاول الانسان تذليل الفرس البري من اول عهدهِ بهِ وقد كان في طوقهِ ان يذللهُ من قبلُ والسهول سهول والخيل البرية تملأ بساطها. ولِمَ لم يحاول الهندي الاميركي تذليل الجاموس ويعيش عيشة القبائل الرحّل وسهول اميركا لا تقلّ عن سهول اسيا رحباً وسعة. ولِمَ لا يستخدم البيض والسود في افريقية الذيل في اعمالهم ويذللونهُ للانتفاع بهِ كما فعل الهنود. أذلك لأن هذه الاعمال غير ميسورة ام لأن الانسان لم يهتدِ الى سبيل عملها

ليتصور الباحث في هذا الفرع من العلوم ان حركة الانسان على هذه الارض ارتقت وانهُ وكل اليهِ توزيع ما فيها من حرّ ورطوبة وادواء ونبات وحيوان وصناعات واشكال حكومة ومذاهب ولغات وسائر ما هنالك. لو نعمل لوجد ان كثيراً من الاشياء التي عهد اليهِ في توزيعها تلاءم كما تلاءم الآن كانها خلقت لتكون معاً. مثال ذلك أن سكان البقاع الحارة خطّ الاستواء ينقطعون الآن عن العمل في منتصف النهار للقيلولة سواء كان في افريقية او اميركا الجنوبية او اسيا ولكنهم ربما اختلفوا في امور اخرى كاللون مثلاً فانهم كلهم ضاربون الى السواد ولكن سكان اميركا الجنوبية سمر نحاسيون والافريقيين سود حالكون والاسيويين كسكان جزيرة بورنيو صفر. وليس توزع الانسان على وجه الارض سوى مشهد واحد من مشاهد نشوئهِ وارتقائهِ ولكنهُ مشهد عظيم الشان كما يظهر لمن يلقي نظرة اجمالية على الارض ويبحث في اختلاف بقاعها اختلافاً جغرافياً

اشار المؤرخ الانكليزي « لكي » في بعض كتاباتهِ الى « العقل الانساني في العصر الاوربي ». فما هو ذلك العصر واين مكانهُ الطبيعي والجغرافي. وقد قسمهُ بعضهم الى ثلاثة ادوار: الاول الدور النهري اي سكنى ضفاف الانهار. والثاني دور بحر الروم اي سكنى سواحلهِ. والثالث دور الاتلنتيكي الحالي اي سكنى سواحلهِ. اما من جهة الدور الاول فمعلوم ان وادي النيل ووادي الفرات كانا مسرحين لحضارتين زهتا ردحاً مدة طويلة. على ان تينك الحضارتين لم تنشأا عفواً بلا تعب. فانهُ وان كان النهران المذكوران

قد ساعدا الانسان فان الانسان ساعدهما ايضاً باختراع نظامات الري فيهما . واما الدور الثاني فيمتد الى آخر العصور المتوسطة وهو الدور الذي كانت فيهِ سواحل بحر الروم مسرح المدنيات السامية هذا اذا ضربنا صفحاً عن حضارة الهند والصين وبيرو والمكسيك وان تكن حضارة هاتين الاخيرتين دون الحضارات الاخرى شأناً . واما الدور الثالث فيمتد من عهد اكتشاف اميركا الى يومنا هذا وفيهِ انتقلت قاعدة تلك المدنيات السامية من سواحل بحر الروم الى سواحل الاوقيانوس الاتلنتيكي وخصوصاً سواحل الجزر البريطانية

والباحث في تلك الادوار وخصوصاً الدور الثاني وطبيعة ارضهِ وسكانهِ يرى ان ليس من الضرورة ان البقع المتشابهة في طبيعتها تحوي اقواماً متشابهين في خلقهم وعاداتهم وطرائق معيشتهم . وقد يكون ذلك كذلك لو كانت الاحوال الطبيعية واحدة لا تتغير وكان يمكن فصل الاصناف المختلفة من الناس بعضها عن بعض فصلاً تاماً . ولكن الامر ليس كذلك بل ان تاريخ البشر تاريخ امتزاج اصناف الخلق بعضها ببعض الى حدّ يوجب الحيرة والارتباك . فما هو سبب الامتزاج . من رأي البعض ان سببهُ جغرافيّ . ثم ان الانسان يمشي الى امام لأن الطبيعة تدفعهُ من ورائهِ ولكن بعض الاحياء تزرح إعياء تلقاء دفع الطبيعة لها وضغطها اياها فتموت . ثم ان في عقل الانسان ذاكرة اجتماعية ذخرت فيها فوائد استفادها في التغلّب على بيئة قديمة ليستخدمها في التغلب على بيئة جديدة وبذلك تمكن من ازالة الحدود الطبيعية التي تفصلهُ عن غيرهِ . ولما كان حيواناً شائع الوطن بطبيعة بنيتهِ الموروثة اصبح شائع العادات والاخلاق ايضاً من غير ان يشعر ولكنهُ يشعر بذلك فيما بعد ويطلبهُ لانهُ لا يكتفي بمجرّد المعيشة بل يطلب عيشة راضية سائغة . وما يقال عن توزع الناس انفسهم على سطح الكرة يقال ايضاً عن توزع حرفهم وصناعاتهم واعمالهم المختلفة . اي انهُ لو كانت البيئة الطبيعية كلّ شيء بحسب حسابهُ لكانت الاحوال الواحدة تفضي الى الاعمال الواحدة في كل حال

وخلاصة القول ان الطبيعة الخارجية او البيئة تعين اصنافنا واشكالنا وهيئاتنا ولكن فطرتنا تتغلّب على ذلك التعيين تغلباً لا نظير لهُ في سائر انواع الحيوان . لذلك ترى الانسان يحبّ ويشتق كلّ يوم على مدار السنة . ثم ان تيار حبهِ يخفّ ويشتد بتقلب الفصول ولكنهُ ليس عبداً لهذه الفصول . ومثل هذا يقال في مكثهِ ومهاجرتهِ وحطّهِ وترحالهِ وسائر حركاتهِ وسكناتهِ . وبعبارة اخرى ان البيئة وهي ما تسمّى عادة بالظروف والاحوال والمحيط والوسط تستطيع تغيير ما تحيط بهِ وفي جملتهِ الانسان ولكنها لم تستطع من تلقاء نفسها حتى الآن ان تولّد انساناً او حياً آخر من الاحياء